الفصل الثانى

طلائع الفكر الاجتماعى

أ ـ مدينة الله.
ب ـ الأمير.
جـ ـ يوتوبيا.
د ـ أطلانطس الجديدة.

الفكر حلقات يرتبط بعضها ببعض، ومراحل يمهد سابقها للاحقها. . لذا فإني أرى أن من متممات بحث المجتمع المثالي في الفلسفة الحديثة، أن نشير إلى الطلائع الفكرية التي تقدمته، سواء في العصور الوسطى أم في عصر النهضة حتى تكتمل الصورة في تتابعها الزمني وقسماتها الفلسفية. .

أ ـ مدينة الله:

كتبها القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) الذي ولد في «طاجسطا» بالجزائر من أب وثني وأم نصرانية، أتقن اللاتينية وأعجب بأدبها وأنشأ مدرسة للبيان، وانصرف عن النصرانية في أول أمره واهتم بالفلسفة وأعجب بشيشرون الفيلسوف الروماني، ودفعه حب المغامرة العقلية إلى اعتناق المانوية القائلة بإلهين للخير والشر، لكنه لم يلبث أن تركها لما فيها من خرافات وتنجيم، واعتنق مذهب الأكاديمية الجديدة في الشك، وأخيراً آثر طريقة العاطفة والوجدان التي توصل إلى الحقائق بالإلهام والإشراق الذي قال به أفلاطون وتلاميذه أتباع الأفلاطونية الحديثة، وهنا تزاوجت عنده النصرانية والأفلاطونية الحديثة فاعتنقها وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وبعد ثلاث سنين عُيِّن كاهناً، وبعد خمس أخرى عين أسقفاً لمدينة «ايبونا» (عنابة على الساحل الجزائري) وسرعان ما أصبح زعيماً للكاثوليكية الأفريقية.

وقد وضع أوغسطين هذا الكتاب للدفاع عن النصرانية في وجه اتهامات الوثنيين الذين نسبوا إليها ما أصاب روما من دمار عام ٤١٠م، وحملوها مسؤولية تدهور الإمبراطورية وانحلالها.

ويذهب أوغسطين إلى أن الشرّ في الأرض سببه معصية آدم، وأن ذريته من بعده تفرقت شيعاً وأحزاباً، وأن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة فهو روح وجسد.

ومن هنا، فهناك مدينتان تمثلان كافة الطوائف والجماعات وهما:

١ ـ مدينة الله أو المدينة السماوية، وهي تعمل للخلاص الروحي وتجاهد في سبيل العدالة وتحقيق الفضيلة وتأكيد الإيمان.

٢ ـ مدينة الشيطان أو المدينة الأرضية، وهدفها التسلط والتملك ونصرة الظلم وتأييد الطغيان.

وهاتان المدينتان كانتا مختلطتين من زمن قايل إلى إبراهيم، وحينئذ بدأتا تتمايزان سياسياً، فمدينة الله تمثلت في شعب بني إسرائيل، ومدينة الشيطان تجسدت في أمبراطوريات الأشوريين والرومان الوثنية، وعند ظهور المسيح انتهى التمايز السياسي بين المدينتين واندمجتا من جديد، وأصبح المجتمع يضم كلاً من الأخيار والأشرار.

ويرى أوغسطين أن الكنيسة هي الجماعة البشرية التي تعمل على بناء المدينة السماوية، وأن الصرع بين المدينتين هو قصة الحياة، وأن الغلبة في النهاية لن تكون إلاّ لمملكة الروح التي جعلت خيرات الأرض وسائل لصيانة الحياة وتحقيق الغاية الكبرى في الكمال الروحي، وليست تلك الخيرات غاية للاستمتاع بلذاتها نتنازع عليها ونشقى في سبيلها.

ومن ثم فإن الكنيسة والسلطة السياسية تلتقيان معاً في قيادة المجتمع، ويصرح أوغسطين[1] بأن المسيح قد حدّد العلاقة بينهما حين قال:

(١) تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط. يوسف كرم ص ٤٦.

«أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فحين يطلب قيصر ماله يعطيه المسيحي إياه لا محبة بقيصر بل محبة بالله، وسواء أكان الحاكم صالحاً أم طالحاً فنحن نعلم ـ وقد صرح بذلك القديس بولس ـ أن سلطانه من عند الله، وإذا خفيت علينا الحكمة الإلهية في تسليط الأشرار فنحن نؤمن أن الله هو الذي سلّطه إذ لا وجود للصدفة عند المسيحي، وحين يطلب قيصر ما هو لله وحده يأباه المسيحي عليه، لا بغضاً لقيصر بل حبّاً بالله، يأباه عليه ولكنه لايثور بل يؤثر تحمل الظلم فلا خوف على الدولة من المسيحيين..!!».

وعلى الرغم من ذلك فإن أوغسطين يشترط في الدولة أن تكون ذات صبغة نصرانية، وحكى جورج سباين[1] أنه اعترض أشد الاعتراض على آراء شيشرون وغيره من كتّاب ما قبل المسيحية الذين زعموا أن إقامة العدالة إنما هي وظيفة أية مجموعة للأمم بصرف النظر عن عقائدها، فرد عليهم موضحاً أن سبب إصراره على أن تكون مجموعة الأمم مسيحية، هو على وجه الدقة إيمانه بعجز الدولة عن إقامة العدالة ما لم تكن مسيحية.

والحياة الاجتماعية ـ عنده ـ قائمة على قانون طبيعي يحظى باحترام الناس جميعاً وهو ذو شقين:

أ ـ لا يصنع المرء بالآخرين ما لا يريد أن يصنع به.

ب ـ إعطاء كل ذي حق حقه.

ولكن هذا القانون الطبيعي يحتاج إلى قانون وضعي يشد أزره ويعلي شأنه، لما في الإنسان من آثار الجريمة الأولى والخطيئة الموروثة.

وللقانون الوضعي ضوابط هي[2]:

«أولاً: يجب أن يصدر عن القانون الطبيعي فليس القانون الجائر قانوناً.

(١) تطور الفكر السياسي جـ ٢ ص ٢٧٩ ترجمة حسن جلال العروسي.

(٢) تاريخ الفلسفة الأوروبية ص ٤٧.

ثانياً: القانون الوضعي أضيق نطاقاً من الطبيعي، فهو لا يتناول سوى الأفعال الظاهرة تاركاً لله المعاقبة على ما لا يعاقب هو عليه.

ثالثاً: القانون الوضعي تابع إلى حد ما لظروف الزمان والمكان، فإن من العدل تدبير الأخلاق بحسب اختلاف أحوال الإنسانية الخاطئة، فلا ينبغي اتهام شعب بالرذيلة إذا ما بدت لنا حكمته أدنى من حكمة شعب آخر أو عصر آخر، فإن العدالة ثابتة ولكنّ الناس متغيرون».

ويدافع أوغسطين عن الحرب ويراها مشروعة متى كانت الوسيلة الوحيدة لصيانة الحقوق المهدرة، ويجب حينئذ أن يسودها الرحمة بحيث تقتصر على الأفعال الضرورية للانتصار، وينادي بحماية الملكية لفردية التي تكونت من الطرق المشروعة.

وأخيراً فإن العدالة التامة لن تكون إلّا في السماء يوم الفصل، حيث تعلو مملكة المسيح وتنعم بالسعادة الأبدية، وتلقى مدينة الشيطان حزاءها الأبدي في الشقاء.

وبعد: فإن أوغسطين شخصية شاذة غريبة جمعت بين وثنية المنوية، وشك الأكاديمية، ومزيج الأفلاطونية، وأخلاط النصرانية الكنسية.

وما مدينته إلّا تأكيداً لتلك الخرافات اللاهوتية التي تنطلق من الخطيئة الأولى؛ لتقيم دولة باسم عقائد لا تفهم، وشعائر لا تعلل، وأصنام لا تمس.

يقول دانـنج[1]:

«إن الآراء التي نشرها أوغسطين في كتابه «مدينة الله» تحتوي على التاريخ الإنساني برمته، وعلى اللاهوت والفلسفة، ولقد سار فيها على الخط الأفلاطوني المشبع ببعض أفكار شيشرون، وصبها بصورة تزيد الاعتقاد بالديانة المسيحية».

---

(١) الفكر السياسي الغربي د. علي عبد المعطي محمد ص ١٤٢.

ب ـ الأمير :

صاحبه هو نقولا ماكيا فيللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) ولد في فلورنسا من أسرة عريقة، وانتظم في السلك السياسي منذ شبابه، وعاصر عهداً اختلط فيه الفساد الأخلاقي بالتمزق السياسي والاجتماعي الذي عانت منه إيطاليا على أيدي نبلائها ورجال الكنيسة فيها.

وكتاب «الأمير» هو أشهر كتبه، بل إن شهرته العالمية في فن السياسة قد جاوزت كل حدود، والكتاب خلاصة وافية لمعرفة ماكيا فللي بجلائل الأعمال التي قام بها الرجال العظام. وقد وقف عليها من خلال تجربته الطويلة وخبرته بأحداث عصره ودراسته لوقائع الماضي، وقدمه ماكيا فللي هدية للأمير المدتيشي الذي أطلق عليه الفلورنسيون اسم «لورنزو العظيم»، ويعتبر عهد هذا الأمير العصر الذهبي للنهضة الإيطالية.

ويمكن أن نوجز كتاب «الأمير» في الخطوط التالية[1]:

أولاً: أنواع الحكومات وطريقة قيامها:

لا تخرج جميع الممالك التي حكمت الجنس البشري عن أن تكون في أحد شكلين: إما الشكل الجمهوري أو الشكل الملكي.

ولم يتحدث ماكيا فللي عن الجمهوريات في «الأمير» واقتصر على الملكيات وكيفية إدارتها وقسمها إلى مجموعة أشكال:

١ ـ الملكيات الوراثية ومهمة الاحتفاظ بها: حيث تعود الناس على أسرة حاكمة ـ أقل صعوبة من الملكيات الجديدة. إذ يكفي في الأولى ألاّ يضطر المرء إلى الاعتداء على المألوفات الوراثية، ـ وإذا لم يقترف من الرذائل ما يربو على المعقول فيحمل الناس على كراهيته ـ فإن من

(١) نرجع إلى النص في:

أ ـ الأمير تعريب خيري حماد.

ب ـ نيقولا ماكيافللي ـ ترجمة وتحليل وتعليق محمد مختار الزقزوقي.

المنطق بالنسبة لرعاياه أن يكونوا شديدي التعلق به، وينسون على مدى حكمه الطويل ذكريات البدء وأسباب التجديد، إذ إن التبدل في الحكم يترك الطريق ممهداً دائماً لوقوع تبدل آخر.

٢ ـ الملكيات المختلطة: وهي المكونة من مجموعة مقاطعات، ومن الواجب أن نلاحظ أولاً أن الدول التي تتحد مع دولة قائمة من قبل وتشترك معها في لغتها فمن السهولة بمكان الاحتفاظ بالضم، إذا جعل الحاكم نصب عينيه أمرين: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين الممتلكات وضرائبها.

لكن عندما يضم الإنسان مقاطعات تختلف عن ممتلكاته الأصلية في لغة أهلها وقوانينهم وعاداتهم، فإن الصعوبات التي تواجهه تكون عظيمة، ويتطلب تذليلها الكثير من حسن الطالع والعمل الدائب المستمر، ولعل من خير الوسائل أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في المملكة الجديدة لئلا تصبح مسرحاً لشهوات موظفيه، وليتمكن الرعايا من الاتصال المباشر به.

وعلى حاكم المقاطعة المحتلة أن يقيم من نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء وحامياً لهم، وأن يحاول إضعاف الأقوياء، والقاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي عندما يدخل إمارة فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره، يحفزهم إلى ذلك حسدهم لأولئك الذين كانوا يتحكمون فيهم.

٣ ـ الإمارات المدنية: ويصل المرء إلى حكمها عن طريق تأييد الجماهير أو عن طريق دعم النبلاء، ورغبة الجماهير تجنب الطغيان ورغبة النبلاء مزيد من التحكم على الجماهير، ومن هذا التضارب تنشأ إحدى نتائج ثلاث:

أما قيام حكومة مستبدة، أو حكومة حرة، أو حكومة فوضى.

ويلقى الأمير الذي يصل إلى منصبه بمساعدة النبلاء مصاعب أكبر في الحفاظ على سلطته من ذلك الذي يرفعه الشعب، إذ الأول يحاط بزمرة من النبلاء يعتبرون أنفسهم أنداداً له فيعجز بذلك عن تسيير دفة الحكم وفق ما يشتهي، أما الذي يرفعه الشعب إلى الزعامة فيجد نفسه وحيداً بلا منافس، يضاف إلى ذلك أنه ليس في الإمكان إرضاء النبلاء باتّباع العدالة، بينما يسهل إرضاء الجماهير، إذ إن هدف الشعب أنبل من أهداف النبلاء.

ومن الملاحظ أيضاً أن الأمير لا يستطيع حماية نفسه من شعب ناقم عليه، بالنظر إلى كثرة أفراده، ولكنه يستطيع أن يحمي نفسه من عداء العظماء لأنهم قلة.

٤ ـ الإمارات الكنسية: وتخضع لتقاليد دينية عريقة، وأمراؤها وحدهم هم الّذين يملكون دولاً لا يحتاجون للدفاع عنها، ويكون لهم رعايا لا يحكمونهم، فهذه الإمارات وحدها هي الأمينة والسعيدة، ولكن لما كانت دعائمها أسباباً رفيعة لا يستطيع العقل البشري الوصول إليها، ـ كما يقول ـ.

تجنب ماكيا فللي الحديث عنها، إذ كون الله هو الذي يمجدها ويحافظ عليها يجعل من السخف والحماقة البحث فيها.

هذا ويجمل ماكيا فللي سبل الوصول إلى الإمارة في أمور هي:

١ ـ الحظ أو حسن الطالع.

٢ ـ الكفاءة البالغة.

والفرق بين الأمرين أن الذين يرتقون إلى الإمارة بفضل حسن الطالع قد لا يجدون صعوبة كبيرة في هذا الارتقاء، وتكمن صعوبتهم في المحافظة على مراكزهم، والدول التي تشاد بسرعة شأنها في ذلك شأن جميع الأمور ذات البدايات السريعة والنمو المتعجل ـ لا تستطيع

أن تكون جذوراً عميقة ولذا فإنها تتعرض للهدم عند هبوب أول عاصفة، إلّا إذا كان الرجل عبقرياً عظيماً يعرف متى يتخذ خطواته الفورية للحفاظ على ما قذف به الحظ في حضنه!!.

أما أولئك الذين ينتقلون إلى مرتبة الإمارة عن طريق مراس كفاءتهم، يحصلون على ممالكهم بصعوبة بالغة ولكنهم يحتفظون بها بسهولة، وتنجم هذه الصعوبات في مرحلة التأسيس من الشرائع والنظم الجديدة التي يجب إدخالها لتوطيد أقدامهم وترسيخها.

٣ ـ الجريمة والعنف.

، ويصل صاحبها إلى الإمارة بتجرده من الشعور الإنساني وارتكابه لما لا حصر له من المظالم، وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل أن يصل إلى السلطان، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد.

٤ ـ تأييد الجماهير أو النبلاء.

٥ ـ التقاليد الدينية.

وقد سبق توضيح هذين السبيلين.

ثانياً: القوات المسلحة:

القاعدة التي ينطلق منها ماكيافللي: هي أن القوانين الجيدة توجد حيث تتوفر الأسلحة القوية، ويرى أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى الإمارة، وعليه في أيام السلم أن يكون أكثر اهتماماً به من أيام الحرب ويستطيع ذلك بأحد سبيلين:

١ ـ العمل.

٢ ـ الدراسة.

وذلك بأن يشغل وقته باستمرار في الصيد، وأن يعود جسمه على المشاق، ويدرس طبيعة بلاده، ويقرأ التاريخ، ويتفحص أعمال الرجال البارزين وأسلوبهم في الحرب وأسباب انتصارهم وهزيمتهم.

ثم نصح ماكيا فللي الأمراء بأن تكون لهم قوات مسلحة مؤلفة من مواطنيهم أو من الذين يعتمدون عليهم حتى يشعروا بالأمن والسلامة، وحذرهم من مخاطر المرتزقة الذين يفتقرون إلى الولاء وحافز التضحية، وكذا من القوات الخارجية لأنها إن خسرت فالأمير هو المهزوم وإذا انتصرت غدا أسيراً لها.

ثالثاً: خصال الأمير:

١ ـ من الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه، أن يتعلم كيف يبتعد عن المسالمة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أولاً يستخدمها وفقاً لضرورات الحالات التي يواجهها.

٢ ـ على الأمير أن لا يكترث كثيراً باشتهاره بالبخل، إذا رغب في تجنب سرقة شعبه.

٣ ـ القسوة ضرورية بقدر ما تؤدي إلى وحدة الرعايا وحفظ الولاء.

٤ ـ عليه أن يعرف متى يلجأ إلى القانون، ومتى يستخدم القوة، وعليه أن يقلد الثعلب والأسد معاً؛ لأن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الأنداد، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب.

٥ ـ من الخير أن يتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والتدين، ولكن عليه أن يعد نفسه عندما تقتضي الضرورة ليتصف بعكسها.

٦ ـ عليه أن تبدو من أعماله مخائل العظمة والخلد، وتكون أحكامه مبرمة لا تقبل النقض.

٧ ـ من الضروري أن يبرهن الأمير على أنه إما أن يكون صديقاً مخلصاً، أو عدواً لدوداً، ويعلن ذلك بلا تحفظ.

٨ ـ على الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة، وأن يكرم النابغين في كل فن.

٩ ـ عليه أن يشغل الناس بالأعياد ومختلف العروض المسرحية وغيرها.

١٠ ـ إذا كانت المدينة مجزأة إلى نقابات أو طبقات، فعليه أن يهتم بجميع هذه المجموعات، وأن يختلط بأفرادها من وقت لآخر مع الاحتفاظ دائماً بجلال منصبه ووقار مكانته.

رابعاً: وزراء الأمير ومستشاروه:

الطريقة التي لا تخطىء في معرفة الوزير واختياره، هي أن من يعهد إليه مهام الوزارة يجب أن لا يفكر قط بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير، وعلى الأمير بدوره أن يفكر به وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم كي يحتفظ بولائه.

وليس هناك من طريقة أفضل في وقاية الأمير من النفاق من أن يجعل الجميع يدركون أنهم لن يسيؤوا إليه إذا ما جابهوه بالحقيقة، ولكن عندما يجرؤ كل إنسان على مجابهته بها فإنه يفقد احترامه، والأمير العاقل هو من يتبع سبيلاً ثالثاً، فيختار لمجلسه حكماء الرجال ويسمح لهم وحدهم بالحرية في الحديث إليه ومجابهته بالحقائق على أن تقتصر هذه الحرية على الموضوعات التي يطرحها ولا تتعداها، ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء وأن يستمع إلى آرائهم في كل شيء، ثم يفكر في الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة ويتخذ قراراته بنفسه على ضوء آراء مستشاريه ويتمسك بها ولا يتراجع.

خامساً: فن معاملة الشعوب:

يمكن أن نستخلص قوانين هذا الفن من استعراض الكتاب في الفقرات التالية:

١ ـ إما أن نعطف على الناس وإما أن نقضي عليهم، إذ إن في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة ولكن الإساءات الخطرة فهم أعجز من أن يثأروا لها.

٢ ـ تمييز الشرور قبل وقوعها يمكّن العاقل من معالجتها بسهولة.

٣ ـ من السهل إقناع الشعوب بأمر من الأمور ولكن من العسير جداً إبقاؤها على هذا الاقتناع ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها حتى إذا توقفت عن الاقتناع أرغمت عليه بالقوة.

٤ ـ لا ريب في أن كل من يخيل إليه أن الشخصيات الكبيرة تنسى ـ عندما يصيبها منافع جديدة ـ الإساءة القديمة يكون مخطئاً أبلغ الخطأ.

٥ ـ على الأمير أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه فوراً ومرة واحدة وألاّ يعود إليها من يوم لآخر، وبذلك يتمكن عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة ـ من خلق الطمأنينة عند شعبه أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة بقطرة حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها.

٦ ـ يتألف العالم من الدهماء الذين تغرهم المظاهر ونتائج الأحداث أما العقلاء فهم قلة وهم معزولون عن الناس عندما يقرر المجموع شيئاً يرونه في أميرهم.

٧ ـ الشعب يحب عادة الهدوء ويميل تبعاً لذلك إلى الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية، والأمير العاقل هو الذي يكبح جماح الفريقين.

٧ ـ من الضروري لكل أمير أن يكسب صداقة شعبه، وإلاّ فإنه لن يجد أي ملجأ في أوقات الشدة والبأساء..

وبعد:

فذلك هو تصور ماكيا فللي عن نفسيات الإنسان وطبائع الشعوب ونظم الحكم، وهو تصور عالج البشر كما هم لا كما ينبغي أن يكونوا، وقد غلب عليه الطابع العملي مما جعله أقل انتماء إلى النظرية السياسية منها إلى الأدب الدبلوماسي، وإذا كان ماكيا فللي قد عرّى الطبيعة البشرية، وقسا عليها فما ذاك إلاّ لوعة نفس على وطنها فهو القائل: «حبي لروحي دون

حبي لبلادي» وقد جاءت نهاية كتاب الأمير نداءً ضارعاً إلى الله أن يبعث إلى إيطاليا من ينقذها مما هي فيه من بربرية وحمق أعمى وآخر كلمته هي: من المؤكد أن القيم العريقة التي كانت تستفز قلوب الإيطاليين لم تمت بعد!!

يقول كريستيان غادس[1]:

«ومن نافلة القول أن ننكر أن كتاب «الأمير» مؤلف ينطوي على المرارة التي نجمت عن فشله في حياته، وليس في استطاعة القارىء الحديث أن يسمح لهذه الحقيقة بأن تحول بينه وبين رؤية ما يحتوي عليه الكتاب من حقائق ما زالت تنطبق على واقعنا في هذه الأيام».

ويقول جورج سباين[2]: «لم يبتدع ماكيا فللي نظرياته السياسية بطريقة نظامية، ولكنه ابتدعها في شكل ملاحظات عن مواقف معينة غير أنه غالباً ما كانت وراءها أو متضمنة فيها وجهة نظر منسقة يمكن تطويرها إلى نظرية سياسية، وقد طورت في الحقيقة بعد زمانه».

جـ ـ يوتوبيا:

وضعها «توماس مور» (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) السياسي الإنجليزي المشهور، وهي كلمة يونانية تتألف من مقطعين:

١ ـ وهو حرف نفي ـ U.

٢ ـ بمعنى المكان أو المحل ـ Topia.

والترجمة الحرفية للمقطعين هي: المكان الذي لا وجود له.

ولكنها اكتسبت معنىً جديداً هو: المدينة المثالية.

والقصة تنقسم إلى شطرين:

---

(١) مقدمة كتاب الأمير ـ تعريب خيري حماد ص ٤٧.

(٢) تطور الفكر السياسي جـ ٣ ص ٤٧٨ ترجمة د. راشد البراوي.

الأول: عرض لأحوال إنجلترا في أوائل القرن السادس عشر ونقد للنظم السائدة في أوروبا.

الثاني: وصف للمدينة المثالية التي تخيلها.

وبطل القصة رحالة برتغالي يدعى «روفائيل».

ويتلخص تصور (مور) عن الدولة المثلى فيما يلي[1]:

المكـان:

يوتوبيا جزير يبلغ عرضها في وسطها - وهو أعرض أجزائها - مائتي ميل، ثم ينثني طرفاها بحيث تصبح الجزيرة على شكل الهلال الوليد، وتتكون الجزيرة من أربع وخمسين مدينة كبيرة تتكلم كلها بلسان واحد، ولا تبعد مدينة عن أخرى أكثر من رحلة يوم واحد مشياً على الأقدام، وفي كل مدينة أربعة أحياء لكل حي سوق خاصة به تضع فيه كل أسرة ما تنتجه.

نظام الحكم:

تختار كل ثلاثين أسرة ممثلاً لها، ثم يختار كل ثلاثين ممثلاً من هؤلاء رئيساً على أن يشترك الممثلون جميعاً في انتخاب أمير البلاد الذي يظل في منصب الحكم ما بقي حياً، إلّا إذا ارتكب من الخيانة ما يستحق العزل من أجله.

. وإن نشأت خصومة بين الأفراد نظر في أمرها قاضيان من الرؤوساء، وما يتعلق بشؤون الدولة كلها يعرض على مجلس الشورى بأجمعه على ألّا ينفذ منه شيء قبل مناقشته في المجلس ثلاثة أيام. . ومن يناقش في أمور الدولة خارج مجلس الشورى يحكم عليه بالإعدام.

---

(١) راجع:

أ - يوتوبيا: ترجمة وتحقيق د. إنجيل بطرس سمعان.

ب - تراث الإنسانية المجلد الأول ص ٣٦٨.

جـ - تطور الفكر السياسي - جورج سباين - جـ ٣ ص ٥٩٣ ترجمة د. راشد البراوي

والقوانين قليلة جداً لأن شعباً بلغ ما بلغه أهل يوتوبيا من التقدم لا يحتاج إلاّ لقليل من مواد القانون، وهم لا يجيزون أن يلجأ أحد إلى محام يدافع عنه أمام القضاء، فكل أمرىء هناك يحفظ القانون ويدافع عن نفسه.

وهم لا يؤمنون بالمعاهدات بين أمة وأخرى، إذ يعتقدون أن الإنسان بطبعه محب لأخيه الإنسان، وإن لم يكن كذلك فلن تجدي كلمات مكتوبة نفعاً في تعليمه الحب.

الحياة الاقتصادية:

الزراعة واجبة على الجميع رجالاً ونساءً، ثم يتحتم على كل فرد أن يختار إلى جانبها صناعة أخرى يتعلمها من وجهيها العلمي والعملي كصنعة الأقمشة أو البناء أو التجارة.. إلخ وعلى كل أسرة أن تنسج ملابسها بنفسها ولكل فرد بعد ذلك أن يعمل ما شاء في أوقات فراغه.

ولا تزيد ساعات العمل على ست، ثلاث منها قبل الظهر ثم يسمح للعمال بساعتين للغداء والراحة ثم ينجزون بقية عملهم في ثلاث ساعات أخرى يتناولون بعدها عشاءهم حتى إذا كانت الساعة الثامنة مساء انصرف الجميع إلى مضاجعهم حيث ينامون ثماني ساعات.

والمساواة سائدة بين الناس جميعاً، فليس لأحد منزلان أو أكثر ولا يجوز للرجل أن يستهكل أكثر من جلباب واحد كل عامين.

ويذهب الناس إلى سوق الحي ليضعوا ما ينتجونه وليأخذوا ما يحتاجونه دون مطالبة بثمن أو ضريبة.

وأهل يوتوبيا لا يحبون الذهب والفضة، ويرون أن الطبيعة أم رؤوم بسطت كفها بما يفيد، فزودتنا بما لا ينفد من هواء وماء وأرض وقبضت كفها في التوافه التي لا تنفع ودستها في باطن الأرض كما فعلت بالذهب والفضة. ولهذا فهم يحتقرون المعادن النفيسة ويصوغون منها قيود المجرمين

وأغلال المساجين ويجعلون منها لعب الأطفال، حتى إذا ما شب هؤلاء عن الطوق ألقوها وأنفوا اللعب بها ليثبتوا أنهم رجال.

الحياة الاجتماعية:

لا يؤذن للمرأة في الزواج قبل الثامنة عشرة من عمرها، ولا للرجل قبل الثانية والعشرين. ومتى تم العقد لا ينفصم إلاّ بالموت أو الزنا أو بأن يسلك أحد الزوجين سلوكاً غير محتمل..

وتواضع أهل يوتوبيا على احتقار المرأة التي تشوه جمالها الطبيعي بالأصباغ وألوان الطلاء.

وتشترط الحكومة ألاّ تزيد الأسرة ولا تنقص عن حد أقصى وحد أدنى تفرضها فرضاً، فإن حصلت زيادة أضيفت إلى أسرة قل عددها فإن زادت أسر المدينة كلها أضيفت الزيادة إلى مدينة أخرى نقص أفراد أسرها فإن زادت المدن كلها أخذ العدد الزائد من كل مدينة ليجتمعوا في مدينة جديدة تبنى لهم في أرض مهملة.

ويفرض القانون أن يلبس الرجال جميعاً لبساً واحداً، وأن يكون للنساء المتزوجات رداء واحد كذلك ولغير المتزوجات رداء آخر... ويراعى في اللباس الجمال وسهولة الحركة بحيث لا يعوق حركة الجسم وأن يصلح للصيف والشتاء معاً.

والعرف السائد أن يأخذ الطفل صناعة أبيه، فإن حدث أن نفر طفل منها تولت الدولة نقله إلى أسرة أخرى تعمل في الصناعة التي يرغبها.

ومن المقرر أن موعد الطعام إذا حل نفخ في صور ليخف الناس إلى قاعات فسيحة تسع أفراد الحي جميعاً، يأكلون من طعام واحد أعده طهاة شعبيون، ويجوز لمن يريد أن يحتجز لنفسه شيئاً من الطعام يأكله في داره، ومن تقاليدهم أن يحجز أولاً طعام المرضى ليرسل لهم في المستشفيات.

وطعام الغرباء الذين قد يزورون بلدهم، وتبدأ كل وجبة بقراءة شيء مما يحّث على الفضيلة، ومن حق الفرد أن يتصرف في وقت فراغه كما يريد على أن لا يتجه إلى الرذيلة وسوء السلوك.

وكل من أجرم أصبح عبداً رقيقاً يكلف بأشق الأعمال ويستذل في غير رحمة، ومن أصيب بعلة لا يرجى شفاؤه منها أخذ القساوسة ورجال الدولة في إقناعه بقتل نفسه حتى يتخلص من الألم؛ لأنه فوق شقائه يؤلم سواه ولا يعمل للدولة عملاً مفيداً، ولكنهم لا يجبرون مريضاً على الموت بل يقنعونه حتى يستل روحه بيده أو يسمح لغيره أن يفعل ذلك وهو مستغرق في نومه، أما من يقتل نفسه دون إذن من القساوسة ورجال الدولة فهو لا يستحق منهم دفناً أو إحراقاً بل يلقون جسده في مستنقع كريه..

الـديـن:

الجزيرة بها ضروب متنوعة من العبادات والعقائد، ولكل إنسان أن يعتنق ما يشاء وأن يبشر بمذهبه على شريطة أن يكون ذلك في غير اعتداء.

وليس من أهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة الدين كي يجعل الدين مهنة وصناعة، والشائع عندهم أن السعادة في الدار الآخرة مرهونة بشيء واحد هو العمل المثمر في هذه الحياة الدنيا.

والكنائس أعدت بحيث تلائم العقائد على اختلافها وليس فيها شارات لدين معين، ولذا فالناس جميعاً يحتشدون فيها جنباً إلى جنب كل يصلي لربه الذي يعبده... وهم يذهبون إلى بيوت الله في آخر الشهر ليرفعوا الحمد لله على نقضاء الشهر وهم بخير، وفي أول الشهر ليدعوه سبحانه أن يغمرهم ببركته في شهرهم المقبل.

وبـعـد:

فتلك ملامح مجتمع شيوعي خطا بها توماس مور خطوات أوسع من خطى أفلاطون، استقدم بها مجتمع كارل ماركس وأرهص بميلاده..

وقد اعتبر «جورج سباين» يوتوبيا مور حلقة منعزلة وغير مهمة نسبياً في فلسفة عصرها السياسية..

د ـ أطلانطس الجديدة:

آخر كتاب صدر عن «فرنسيس بيكون» (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) صاحب المذهب التجريبي وواضع الأورجانون الجديد (الآلة الجديدة) في المنطق.

وأطلانطس[1] جزيرة نائية يمتاز أهلها بالذكاء الخارق والأخلاق النبيلة، ويلبسون أردية تجمع بين البساطة والنظافة والجمال.. وشعارهم البحث العلمي الدائب وتطبيقاته العملية المستمرة.. وليس في الجزيرة أحزاب ولا يحكمها سياسيون وإنما يملك زمام الدولة رجال الفن والمهندسون والفلكيون وعلماء طبقات الأرض والأطباء والاقتصاديون والفلاسفة.. إلخ.

وتلك الحكومة العلمية التي يديرها إثنا عشر عالماً يمثلون كافة جوانب العلم ـ لا تصب سلطانها على الإنسان وإنما توجه حكمها إلى الطبيعة كي تعرف نواميسها وتوسع نطاق مملكة الإنسان الكونية.

ويحلم بيكون في مدينته الجديدة بوجود نباتات تنشأ بدون بذور، وبوسائل لتحويل الأشجار أو النبات إلى أنواع أخرى، وكذلك بطرق جديدة لإطالة حياة الحيوان بعد إزالة أعضاء معينة، وأيضاً بسبل حديثة للتحكم في نمو بعض الحيوانات والطيور بكثرة، وإعاقة نمو البعض الآخر الذي يضر بالإنسان....

ويتخيل بيكون آلات طائرة تخضع أجواء الفضاء لسلطان الإنسان،

---

(١) انظر:

أ ـ قصة الفلسفة الحديثة. د. أحمد أمين، د. زكي نجيب محمود جـ ١ ص ٧٨.

ب ـ دروس في تاريخ الفلسفة ـ د. إبراهيم مدكور، يوسف كرم ص ٢١٠.

وغواصات تسبح مع الحوت تحت أغوار الماء، وغير ذلك من التطبيقات لألوان الدراسات العلمية التي تعود على الناس بالخير الوفير. .

وأطلانطس الجديدة تنتج ما تستهلك، وتستهلك ما تنتج فلا مبرر لأن تزج برجالها في معمعان الحروب من أجل الأسواق الخارجية وترويج التجارة. .

وهي لا تستقبل أحداً من الغرباء، وإن كانت ترسل علماء إلى الأقطار الأخرى ينقلون إليها خبراتهم، ويعودون بدراسات جديدة عن لغات الشعوب وعلومهم وسائر ضروب حياتهم.

وبعد:

فقد أراد بيكون أن يؤسس مدينة للعلم والتكنولوجيا، وما أحلاه عن النبات والحيوان ببعيدة عما هو متعارف عليه الآن من التهجين وتحسين السلالات، كما تحقق حلمه في ارتياد أجواء الفضاء والغوص في أعماق البحار وقد أحاط بكثير من قضايا الكون والطبيعة.

تعقيب عام

لقد اخترت نماذج أربعة تعد طلائع الفكر الاجتماعي الحديث، وتمثل اتجاهات بارزة في الفلسفة الحديثة، اتخذت لنفسها ـ فيما بعد ـ مباديء سياسية واجتماعية جديدة، وتحدّدت مناهجها في مدارس خاصة .

فالقديس أوغسطين كان نصرانياً حين قدم مدينته لتعلي من شأن طلاسم الثالوث والتجسد والكلمة والخطيئة، وكان فكره حلقة أساسية في فلسفة العصور الوسطى. .

وماكيا فللي كان سياسياً حين سطر ملاحظاته على نظم الحكم وفن قيادة الشعوب، وبذا أصبح فاتحة لتفكير السياسي الحديث وواضع القواعد الأولى لصروح تلك الفلسفات السياسية الضخمة التي توالت فيما بعد.

وتوماس مور كان اقتصادياً في تخطيطه لمدينته المثلى فاهتم بالجانب الاقتصادي والعوامل المؤثرة فيه، ونلمح في جزيرته مبدأين أساسيين هما:

١ ـ شيوعية المال والتجارة.

٢ ـ وحدة الأديان.

وقد تبنى الأول كارل ماركس وأشياعه وأقاموا المجتمع الشيوعي، وتبنى الثاني اليهود في حركاتهم الماسونية وأنشطتهم المختلفة في مجالات مقارنة الأديان وعلوم الاجتماع والنفس..

وفرنسيس بيكون كان مبشراً بقدوم عصر العلم والتكنولوجيا وأبحاث الفضاء..

وهكذا فإن النصرانية والسياسة والاقتصاد والبحث العلمي، عناصر أربعة أحاطت بالفكر الاجتماعي الحديث ووجهته مجتمعة أو منفردة، وتولدت منها مدارس فكرية جديدة تلتقي معها في بعض أصولها بحكم عامل الوراثة والبيئة، وتختلف عنها تبعاً لظروف النشأة وعوامل التطور.

وقد اخترت لتجلية الفكر الاجتماعي الحديث:

١ ـ جان جاك روسو، والعقد الاجتماعي.

٢ ـ كارل ماركس، والمجتمع الشيوعي.

٣ ـ فردريك نيتشه، والإنسان الأعلى.

إذ الأول صاحب نظرية العودة إلى الفطرة النقية، وكتاباته هي تمهيد لقيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التي أرهصت بميلاد الحضارة الغربية الحديثة.

والثاني استطاع في غفلة من الحق وسلطانه أن يبث بذور ثورة عالمية، تمكنت أخيراً من السيطرة على رقاب البشر في أرجاء واسعة من الأرض، وقدمت دواء هو شر منا لداء، وفتنت عقولاً ضعيفة وأججت نيران ثائرة.

والثالث أثر تأثيراً عميقاً على فلسفة القارة الأوروبية وأدبها خاصة فى المانيا، وعلى هدى من نظريته «في السوبرمان» قامت أعتى الحروب وهى الحرب العالمية الثانية بقيادة هتلر..

فإلى تفصيل ذلك....

* * *